

تشجيع سيف الدولة للأدباء والشعراء

لقد انتشى الشعر في بلاط سيف الدولة واهتزت أعطافه وسالت به الأودية وارتفعت له أعلام خافقة وقامت في ميدانه سوق نافقة ، ويرجع أكبر الفضل في إشعال جذوته وإيقاد شعلته إلى الأمير الحمداني الذي شَغِفَ بالعلم والأدب وفاز الشعر منه بأعظم عناية وأسمى رعاية ولقي الشعراء في أكنافه جاهاً عريضاً وغنى واسعاً ، فلقد نثر عطاياه لكل ناظم وفتح قصره لكل ناغم وأغدق منحه على المجيدين السابقين .

ومما ساعد على تقدير الشعر وتكريم الشعراء أن الأمير كان على جانب عظيم من الثقافة والبصر بمواطن الجمال والقدرة على تمييز الحبيث من الطيب .

وكان الأمير الحمداني يمتاز بدوق أدبي بالغ دفعه إلى وزن الآثار الأدبية بميزان الذهب على قانون النقد الصحيح وجعل في قدرته المفاضلة بين الشعراء والأدباء بلغة الناقد المتفحص . وبسبب هذه الروح التي بثها الأمير الحمداني سمقت شجرة الشعر الفينانة وأينعت ثماره وامتدت أغصانه . وكثر الشعراء الوافدون وتضاعف عددهم فكان بلاط الأمير ملتقى الشعراء ومنتمى الأدباء ومنهم بالإضافة إلى المتنبي أبي الطيب من الشعراء الفحول أبو العباس النامي والصنوبري وعلي بن عبد الله الناشئ والسري الرفاء وأبو الفرج البغّاء

وأبو الفرج الوأواء وأبو الفتح كُشاجِمُ وأبو نصر بن نُباتة السعدي وأبو العباس الصفري والخالديان وأبو القاسم الشيطمي وغيرهم .

ولقد عادت جهود الأمير على الأدب باليمن والبركة فبرز الشعراء في رحابه وبرزوا أقرانهم وفاقوا أمثالهم وهذا هو الثعالي يقول : « والسبب في تبرز القوم في الشعر قربهم من خطط العرب ولا سيما أهل الحجاز وبعدهم عن بلاد العجم وسلامة ألسنتهم من الفساد العارض لألسنة أهل العراق بمجاورة الفرس والنسب ومداخلتهم إياهم ، ولما جمع شعراء العصر من أهل الشام بين فصاحة البداوة وحلاوة الحضارة ورزقوا ملوكاً وأمراء من آل حمدان وبنو ورقاء وهم بقية العرب ، والمشغوفون بالأدب والمشهورون بالمجد والكرم وبالجمع بين أدوات السيف والقلم وما منهم إلا أديب جواد يحب الشعر وينتقده ويثيب على الجيد منه فيعزل ويفضل—انبعثت قرائحهم في الإجابة فقادوا محاسن الكلام بألین زمام وأحسنوا وأبدعوا ما شاءوا (١) .

ولقد كان جُودُ الأمير وعطاؤه عاملاً له أهمية كبيرة في تلك النهضة الشعرية التي شهدتها حلب ، ولقد ذاع صيت سيف الدولة بجوده وكرمه حتى أنشأ بديع الزمان الهمداني مقامة سماها « المقامة الهمدانية » صور فيها ما كان يجري في مجلس الأمير حيث عُرض عليه فرَسٌ أُصِيلَ لحظته الجماعة فقال :—أيكم أحسن صنعته جعلته صلته فكلُّ جَهْدَ جُهْدُهُ وبذل ما عنده (٢) . وهذه القصة الخيالية تمثل صورة سيف الدولة في أذهان الأدباء وأمثالهم .

كما أن ثقافة الأمير وتذوقه للأدب ونقده كان له دور مهم في ذلك الإشعاع الفكري والأدبي ، ويجب ألاّ يأخذنا العجب مما يووى عن سيف

(١) يتيمة الدهر (١ / ١٢ - ١٣) .

(٢) مقامات الهمداني ص (١٥١) .

الدولة في هذا الشأن فقد كان كما اتضح لنا سابقاً - صاحب ثقافة واسعة عميقة ولقد هيأت له بيئته الخاصة التي نشأ فيها حياةً مثقفةً لها حظ من المشاركة في العلم والأدب والأخذ بأسباب الحضارة الراقية الزاهية التي كانت مسيطرة في بغداد .

وتظهر ثقافته في أحاديثه ومحاوراته ومشاركته فيما كان يخوض فيه جلساؤه من العلم والأدب والفن وقدرته على التمييز الدقيق فيما يقال في مجلسه ورغبته في أن تحفل حلب بأضخم عدد ممكن من العلماء والأدباء والكتاب والشعراء وفي أن تتفرع فيها الثقافات فتزهر الفلسفة إلى جانب العلم وتزدان علوم الدين إلى جانب علم اللغة والأدب^(١).

وحسبنا أن نقولُ إن هذا الجو الذي أوجده سيف الدولة في حلب وهذا الاهتمام الكبير الذي أبداه بالشعر والشعراء شجع كل من كان عنده قدرة فنية على قول الشعر والإجادة فيه ، فبائع البطيخ وهو الوأواء الدمشقي أصبح شاعراً كبيراً وكُشاجم الذي قيل انه كان طباح سيف الدولة أصبح مع هذا شاعراً ظريفاً وكذلك قيِّمًا المكتبة وهما الخالديان صارا شاعرين مشهورين. ولقد كثر الشعراء في عهد سيف الدولة كثرة نادرة حتى أن الثعالبي يقول لم يجتمع قط بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر^(٢).

ولقد كانت ميزات سيف الدولة مشجعة على النهوض بالشعر والأدب والعلم إلى غاية بعيدة فهو عربي من تغلب يعتز بنسبه ومجد بيته وفيه الطباع العربية التي اشتهرت في البيوتات الكبيرة فكان يطمح كل الطموح لحسن الأحدوث^١ ولذلك كان يهتم أن يكون حوله أعظم الشعراء يُشيدون

(١) مع المتنبي ص (١٨٣) .

(٢) اليتيمة (١ / ١١) .

بذكره ويسير شعرهم في الآفاق مدحاً فيه ، ثم هو فارس فيه صفات الفروسية من إباء وفخر ونُصرة للضعيف ومعونة للبائس والفقير ، وكان يرى المجد والمروعة في الزهادة في المال معتزاً بالشرف مغدقاً على الأصدقاء والشعراء (١) .

ولقد كان الأمير الحمداني مقصد الشعراء والأدباء حيث ينزلهم في بلاده على الرحب والسعة ويبرهم بصلاته وكان قد أمر بضرب دنانير خاصة للصلوات وزن كل دينار عشرة مثاقيل وعليه اسمه وصورته فأمر يوماً لأبي الفرج منها بعشرة دنانير فقال ارتجالاً (٢) .

نَحْنُ بِجُودِ الْأَمِيرِ فِي حَرَمٍ نَرْتَعُ بَيْنَ السَّعُودِ وَالنَّعَمِ
أَبْدَعُ مِنْ هَذِهِ الدَّنَانِيرِ لَمْ يَجْرِ قَدِيمًا فِي خَاطِرِ الْكَرَمِ
فَقَدْ غَدَتْ بِاسْمِهِ وَصُورَتِهِ فِي دَهْرِنَا عُوْذَةٌ مِنَ الْعَدَمِ

فزاده عشرة أخرى . والأمثلة كثيرة على ما لقي الشعراء في بلاط سيف الدولة من رعاية فائقة وعناية بالغة ، ولهذا لا عجب أن تكون حلب في عهده ملتقى الشعراء من الشرق والغرب .

ومن تلك الأمثلة أن أبا فراس كان يوماً بين يديه في نفر من ندمائه فقال لهم سيف الدولة أيكم يحيز قولي ، وليس له إلا سيدي « يعني أبا فراس » :

لَكَ جِسْمِي تُعْلِيهِ فِدَمِي لَمْ تُحْلِهِ
لَكَ مِنْ قَلْبِي الْمَكَانُ نُ فَلِمَ لَا تَحْلُهُ

(١) ظهر الاسلام - أحمد أمين ص (١٧٩) .

(٢) اليتيمة (٢٠ / ١) .

فارتجل أبو فراس قوله :

أنا إن كنتُ مالِكاً فليَ الأمرُ كُلُّهُ

فاستحسنه وأعطاه ضيعة بمنجى تُغَلِّ ألفي دينار (١) .

وحدث أبو الحسن علي بن محمد الهمداني قال : كنت واقفاً بين السماطين بين يدي سيف الدولة بجلب والشعراء يُنشدونه فتقدم إليه أعرابي رث الهيئة فاستأذن الحجاب في الإنشاد فأذنوا له . فأنشد :

أنتَ عَلِيٌّ وَهَذِهِ حَلَبُ قَدْ نَفِدَ الزَّادُ وَانْتَهَى الطَّلَبُ
بِهَذِهِ تَفْخَرُ الْبِلَادُ وَبِالْأَمِيرِ تُزْهَى عَلَى الْوَرَى الْعَرَبُ
وَعَبْدُكَ الدَّهْرُ قَدْ أَضْرَبْنَا إِلَيْكَ مِنْ جَوْرِ عَبْدِكَ الْهَرَبُ

فقال سيف الدولة : أحسنت والله أنت !! وأمر له بمائتي دينار (٢) .
ولقد كان للمتنبى منزلة خاصة لدى الأمير ولقي في ذُراهُ كرمًا وافرًا وعطاءً كبيراً فقد كان يعطيه كل سنة ثلاثة آلاف دينار إزاء ثلاث قصائد يُنشدُها إِيَّاهُ كل عام (٣) .

وقد أعطى سيف الدولة أبا الطيب المتنبى ضيعة بالمعرة اسمها صَفٌّ لِقِطَاعاً لَهُ (٤) .

وقد روى ابن حِجَّةَ الحَمَوِيُّ في ثمرات الأوراق « أن سيف الدولة انصرف من حرب وقد نصر على عدوه فدخل عليه الشعراء فأنشدوه فدخل رجل شامي فأنشده :

(١) اليتيمة (١ / ٢١) .

(٢) اليتيمة (١ / ٢٠) .

(٣) الصبح المبني عن حيشة المتنبى ص (٤٦) .

(٤) اعلام النبلاء (١ / ٢٨٨) .

وكانوا كفّاراً وسوسوا خلف حائطٍ وكُنْتَ كسِنُورٍ عليهم تَسَقِّفا

فأمر بإخراجه فقام على الباب يبكي فأخبر سيف الدولة ببيكائه فرقاً له وأمر برده وقال له : مالك تبكي ؟ قال : قصدت مولانا بكل ما أقدر عليه أطلب بعض ما يقدر عليه فلما خاب أُملي بَكَيْتُ ، فقال له سيف الدولة ويلك فمن يكونُ له مثل هذا النثر يكون له مثل ذلك النظم . وكم كنت أملت ؟ قال خمسمائة درهم فأمر له بألف درهم فأخذها وانصرف (١) .

وذُكِرَ أن الشاعر الأحمسي دخل على سيف الدولة فأنشده قصيدة له فيه فاعتذر سيف الدولة بضيق اليد يومئذ وقال له اعتذرُ فما يتأخر حمْلُ المال إلينا فإذا بلغك ذلك فإننا لنضاعف جائزتك ونحسن إياك .

ثم اتفق أن حمْلَ إلى سيف الدولة أموال من بعض الجهات على بغال فضاع منها ببَغْلٍ بما عليه وهو عشرة آلاف دينار وجاء هذا البغل حتى وقف على باب الناشيء الشاعر بالأحمسي فأخذ ما عليه من المال وأطلقه ثم دخل حلب ودخل على سيف الدولة وأنشده قصيدة له يقول فيها :

ومَن ظنَّ أن الرزق يأتي بحيلةٍ فقد كذَّبَتْهُ نفسه وهو آثمٌ
يفوتُ الغني مَنْ لا ينام عن السَّري وآخرُ يأتي رزقه وهو نائمٌ

فقال سيف الدولة بحياتي وصل إليك المال الذي كان على البغل فقال نعم : فقال خذه بجائزتك مباركاً لك فيه (٢) . وهذه القصة التي يغلب عليها الوضع تحمل بين طياتها دلالة على كرم الأمير وجوده .

(١) نخبة تاريخية - كانار - ص (٣٥٠) .

(٢) معجم البلدان - ياقوت (١ / ١١٤ - ١١٥) .

ودخل عليه شاعر وطرح من كفه كيساً فارغاً واستأذنه في إنشاده فأذن له فأنشده قصيدة أولها :

حِبَاؤُكَ مُعْتَادٌ وَأَمْرُكَ نَافِذٌ وَعَبْدُكَ مُحْتَاجٌ إِلَى أَلْفِ دَرَاهِمٍ
فلما فرغ من إنشاده ضحك سيف الدولة ضحكاً شديداً وأمر له بألف دينار فجعلت في الكيس الفارغ الذي كان معه (١) .

ولقد ذاع صيت عطائه الواسع في سائر الأقطار الإسلامية وفي كل ناد ومحفل ، مما كان يدفع بعض الشعراء أن يمدحوه بُغْيَةً النوال دون أن يقصدوا حلب .

ولم يقتصر مدح سيف الدولة على الشعراء بل ان بعض الشاعرات هزجن بكرمه وصدحن بأريحيته . فلقد روي عن أبي علي التنوخي — قال أخبرني ابن عبد الله السلامي أنه كانت له ابنة خال بغدادية مخزومية تقول الشعر (٢) . وقال أنشدتني لنفسها من قصيدة لها إلى سيف الدولة :

لَوْلَا حَذَارِي مِـنْ أَنْ أَلَامَ عَلَى عِتَابِ يَوْمٍ مِـنْهُ وَإِعْتَابِي
لَسَرْتُ وَاللَّيْلُ هَوْدَجِي وَذُبَابُ الدِّ سَيْفٍ فِي نَحْرِهِ إِلَى بَابِهِ (٣)

وهكذا نلاحظ أن جانباً آخر غير الحرب لامعاً في شخصية الأمير الحمداني وهو نزعته الأدبية التي حفزته إلى العمل على نهضة الشعر والعلوم والآداب

(١) ابن خلكان (١ / ٤٦٢) .

(٢) عاتكة بنت محمد بن القاسم المخزومية أم الحسن بن محمد عبد الله السلامي الشاعر كانت شاعرة فصيحة مدحت عضد الدولة ببغداد وتوفيت سنة ٣٦٧ .

(٣) نشوار المحاضرة — التنوخي (٥ / ٢٧٠) .

ولقد جاء في دائرة المعارف الإسلامية أن الفضل الذي أحرزه سيف الدولة ابن حمدان بنشر العلوم والآداب العربية هو عنوان مجد لا يقل عن أعماله الحربية .

ويقول بروكلمان : ولئن كان سيف الدولة يدين بما تم له من شهرة عريضة لنضاله الموفق ضد الروم في المحل الأول ليس من شك في أنه مدين بذلك في المحل الثاني لعطفه على العلوم والفنون ورعايته لها ^(١) .

ولقد أخذ بعض الباحثين على سيف الدولة تناديه في الإفضال على الشعراء والأدباء فقد قال الأستاذ محمد كرد علي : كان رحمه الله يجوز أخذ ما في أيدي الناس ليستعين به على غزو الروم ويسرف بجانب كبير يفضل به على الشعراء والأدباء فيخرجه من أكياس الرعية وجيوبهم لينفقه في وجوه المبرات والعطايا ^(٢) .

وقال في محاضرة ألقاها في نادي الشهباء عام ١٩٢٣ « إن ما صدر عن سيف الدولة غاية في الكرم ولكنه لا يجوز في الشرع والعقل أن تُجَنَّب هذه الأموال من الفقراء والأغنياء لتصرف في مصالح الأمة ثم يأخذ شاعر واحد . وهذا القول صحيح إذا قسناه بالمقياس المتداول في عصرنا ولكن عصر سيف الدولة يختلف عما نحن فيه كل الاختلاف فليس الغرض فيما نعتقد من هبات الأمير وعطاياه الكثيرة للمتنبي والناشيء وأمثالهم مجرد المدح بل كانت ألسنة الشعراء تؤدي في ذلك الوقت ما تؤديه اليوم أجهزة الإعلام من الإذاعة المسموعة والجرائد والإذاعة المرئية التي تستهلك معظم ميزانيات الدول . فكانت وظيفة الشعراء أن ينشروا فضائل من تقلد زمام الحكم من سياسة

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية (٢ / ٩١) .

(٢) القديم والحديث - محمد كرد علي ص (١٧٧) .

وحسن تدبير وإشفاق على الرعية وقهر للأعداء ، ولذلك كانت تجرى عليهم الهبات والصلوات والجوائز . وبعبارة أخرى لقد كان الشعراء وسيلة دعائية للأمير الحمداني يتغنون بانتصاراته ويستوون هزائمه ويدعون الناس إلى نصرته .

وخلاصة القول أن بلاط الأمير الحمداني ضم أعظم شعراء العربية من مختلف الأوطان وكانوا يتسابقون في مدح الأمير ، وليس من شك في أن شخصيته هي التي جمعت هذا العدد الفريد من الشعراء في صعيد واحد فما أن قضى الأمير نسجه حتى تفرق هذا الجمع وانفرط هذا العقد وانتثر هؤلاء الشعراء يضربون في بقاع الأرض شرقاً ومغرباً^(١) .

وبالإضافة إلى كرم الأمير وسخائه كان ذوقه الفني وتقديره للشعر الجيد يدفع الشعراء لقصد بلاطه وعرض فنهم عليه .

وتدل الدلائل كلها على دقة حسه الأدبي وذوقه الفني الذي يقول فيه المتنبي :

عَلِيمٌ بِأَسْرَارِ الدِّيَانَاتِ وَاللُّغَى لَهُ خَطَرَاتٌ تَفْضَحُ النَّاسَ وَالْكُتُبَا

كما أن حب المنافسة كان يحفز الشعراء إلى أن يقصدوا حلب حاضرة الأمير التي كانت تموج بالشعراء والأدباء والعلماء وذلك من أجل الحصول على التفوق والغلبة ، ويضاف إلى هذا أن سيف الدولة نفسه بطلٌ عظيم وفارس شجاع ومجاهد ذاد عن حمى الإسلام والدين فكان كل هذا باعثاً للشعراء إلى التغني بانتصاراته وبطولاته والحصول على عطاياه وهباته . ولذلك كثر الشعراء في بلاط سيف الدولة كثرة نادرة فلم يجتمع قط بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر^(٢) .

(١) زبدة الحلب (١ / ١٢٣) . (٢) اليتيمة (١ / ١١) .